مفعـــول مغنيـــة

بعد خمس ساعات من اختطاف الجنديين إلداد ريغف وأودي غولدفيسر في الثاني عشر من تموز ٢٠٠٦، قال رئيس الموساد مئير دغان: «ينبغي الضرب في سوريا». وقد أثار اقتراحه هذا حتى في المداولات الأمنية الأولى التي عقدت في مكتب وزير الدفاع فور عملية الاختطاف، وتم رفضه بذهول بل حتى باستهزاء من جانب المشاركين الآخرين. غير أن دغان لم يتراجع. وفي مساء ذلك اليوم المصيري عاد وطالب بمهاجمة سوريا. كما أنه في المشاورات المقلصة التي أجراها رئيس الحكومة إيهود أولمرت مع قادة الأجهزة الأمنية، عاد وكرر اقتراحه في مناسبات مختلفة على طول الحرب.

وكان تبرير دغان هو أن سوريا هي من يمسك حقيقة بالخيوط في لبنان وهي مصدر عدوانية حزب الله، ولذلك من الواجب وضعها في مكانها. غير أن حرب لبنان الثانية انتهت من دون تدخل مباشر من جانب السوريين (حيث أن التدخل السوري تجلى أساساً في توفير السلاح الفتاك لحزب الله، حتى في ذروة المواجهة). وفي نهاية المطاف، لم تكتف إسرائيل بعدم مهاجمة أي موقع سوري كان، بل أن قادة المستوى السياسي ورئيس الأركان حينها الجنرال دان حلوتس اهتموا بإطلاق رسائل تهدئة علنية لدمشق تشدد على أن لا نية لإسرائيل بمهاجمة سوريا. ومن الجائز أن هذا ما دفع الرئيس السوري بشار الأسد ليسمح لنفسه بتهديد إسرائيل بالحرب إذا لم تعد له أراضي هضبة الجولان. وكان ينظر لمئير دغان في المؤسسة الأمنية منذ صيف ٢٠٠٦ كشخص «مهووس» بالموضوع السوري، وداعية للحرب مع دمشق. وأيا يكن الحال، فإن الهجمات في سوريا التي لم تتم خلال حرب لبنان الثانية جاءت بعدها، وهي منسوبة في وسائل الإعلام الدولية للذراع الطويلة للموساد والجيش الإسرائيلي. وقصدت وسائل الإعلام تلك أولا وقبل كل شيء المفاعل النووي السوري قبل حوالى خمسة شهور، والآن اغتيال عماد مغنية في حي دمشقي.

معضلة الأسد

لا ريب أن تسرع الأسد قد تبدد منذ خطابه الاحتفالي في نهاية حرب لبنان الثانية. وقد جرت العادة في السجال الداخلي الإسرائيلي فحص كل خطوة من زاوية إسرائيلية وحسب، ولكن إذا فحصنا الوضع من زاوية سورية، فإن الصورة محبطة. فالسوريون يتلقون الإهانة تلو الإهانة. وعملياً فإن سلسلة الإهانات لهم بدأت قبل حرب لبنان الثانية، في سلسلة عمليات جاءت رداً على تفجيرات نفذتها في إسرائيل منظمات إرهابية تتخذ من دمشق ملاذاً لها. ففي تشرين الأول ٢٠٠٣ هاجمت إسرائيل معسكر تدريب للمخربين في عين صاحب قرب دمشق. وفي أيلول ٢٠٠٤ جرت عملية اغتيال، في ظروف مشابهة بشكل مذهل للاغتيال هذا الأسبوع، للقيادي في حماس عز الدين الشيخ خليل، وهي عملية نسبت أيضاً لإسرائيل. كما قامت طائرات حربية إسرائيلية مرات عديدة بالتحليق فوق قصر الرئيس بشار الأسد، وآخرها في ليلة ما بعد اختطاف جلعاد شاليت في ٢٥ حزيران ٢٠٠٦.

ونشر بعد حرب لبنان الثانية أن جهات في الولايات المتحدة حثت إسرائيل على مهاجمة سوريا، فعلا كتوصية رئيس الموساد دغان. ومما لا ريب فيه أن الواقعة المحرجة باغتيال كبير المخربين عماد مغنية في قلب دمشق بعد أن شارك في حفل يوم الاستقلال الإيراني، لا تسهم في تحسين سمعة سوريا في أميركا. ومن الوجهة الظاهرية، فإن سلسلة الإهانات تجبر بشار الأسد على الرد، ولكن يبدو أن كل الخيارات التي أمامه سيئة.

ويفترض بالنشاطات المعادية الممنهجة في عمق العاصمة السورية أن تقلق الأسد جداً وتثير لديه تساؤلات حول قدرة أجهزته الأمنية لمعرفة ما يجري لديها، تحت أنفها وحمايته في مواجهة الراغبين الكثر بالحاق الأذى به.

وعدا ذلك فإن الهجوم العسكري على إسرائيل ليس وارداً تقريباً في الحسبان لدى الأسد. ففي وقت قريب من مهاجمة المفاعل النووي رفع الجيش الإسرائيلي من مستوى جهوزيته في هضبة الجولان إلى الحد الأقصى، وهو ما ردع السوريين عن البدء بهجوم عسكري على إسرائيل، الأمر الذي كان سيكلفهم كثيراً. وهذا الأسبوع تجنب الجيش الإسرائيلي تنفيذ إجراءات احترازية مشابهة في الهضبة، وهو ما كان سيخلق بحد ذاته تصعيداً هناك.

لكن عدم وجود خيار عسكري حقيقي، دفع إلى التقدير في إسرائيل بأن السوريين يحضرون لتنفيذ عملية انتقامية ضد هدف ما في العالم لا تظهر بصماتهم عليه. ويحتمل أن يكون مغنية قد تعاون معهم لتنفيذ مثل هذه العملية، إلا أنه الآن، قد انتهى.

معضلة نصر الله

إن الخشية من رد فعل سوري على الهجوم في أيلول، حتى قبل اغتيال مغنية، هو سبب حالة التأهب القصوى في كل ممثليات إسرائيل في أرجاء العالم منذ شهور عدة. فهل سيرد حزب الله فعلاً بقوة مدوية كما فعل في السفارة الإسرائيلية ومبنى الطائفة اليهودية في بوينس آيرس بعد اغتيال زعيم المنظمة السيد عباس الموسوي في شباط ١٩٩٢؟ هذا أيضاً غير مؤكد.

إذا ما تمعنا جيداً في الوضع الذي نشأ هذا الأسبوع، فإنه حتى من وجهة نظر زعيم حزب الله حسن نصر الله، فإن إقدامه على تنفيذ عملية مؤلمة قد تكلفه هو الآخر حياته. ورغم كل الانتقادات المحقة في إسرائيل للطريقة التي أديرت بها حرب لبنان الثانية، فإن مجرد الاستعداد للخروج إلى حرب بعد عملية اختطاف قرب الحدود، يعرض إسرائيل كـ«دولة مجنونة». كما أن القدرة الاستخبارية التي تجلت في كشف مكان عماد مغنية وتصفيته، يجب أن تقلق نصر الله. إذ أن زعيم حزب الله يعرف أنه هو الآخر، مثل مغنية، كان هدفاً للاغتيال خلال حرب لبنان الثانية، لكن الأمر لم ينجح. ولو أن مغنية أو نصر الله قتلا في صيف ٢٠٠٦، لبدت نتائج الحرب مغايرة آنذاك.

إن قرار وضع عماد مغنية، وليس نصر الله، هدفاً للتصفية بعد حرب لبنان، هو قرار صائب، بافتراض أن هناك صحة في ما ينشر عن ضلوع إسرائيل في العملية. ففي نظر العالم كله، فإن كبير القتلة الملطخة يداه بدماء آلاف الضحايا، هو هدف مشروع تماما للتصفية، وأن إبعاده عن الساحة سيلحق ضرراً كبيراً بالقدرات العملانية لحزب الله. وإذا قام حزب الله بالرد بشكل دموي على عملية قتله، ضد أهداف إسرائيلية أو يهودية، فقد يكون نصر الله هو الهدف التالي للتصفية.

كما يفترض به أن يعرف أن تحديد مكان زعيم سياسي مثله، في بيروت، أسهل بكثير من العثور على إرهابي مراوغ مثل مغنية في قلب دمشق.

ويفترض أن تتغلغل في سلسلة اعتبارات نصر الله أيضا الخشية من الرأي العام اللبناني المعادي في حالة قيامه بتوريط بلاده في مواجهة أخرى مع إسرائيل، ومن جهة أخرى، لا يمكنه أن يسمح بضبط نفسه إزاء اغتيال رمز حزب الله وعمود إسناده. كيف سيتصرف؟ الأيام ستنبئنا.

معضلة إيران

عماد مغنية هو المستشار الذي أشد ما يحتاج إليه نصر الله في هذه الأيام الصعبة. وبغيابه، سيكتفي بمستشارين أقل قيمة منه، سواء من ضمن المنظمة أو من بين داعميه الإيرانيين. غير أن تصفية مغنية تضع إيران أيضاً، أمام معضلة غير سهلة. وفي طهران سيفرحون لتقديم العون لأي منظمة إرهابية تنوي تنفيذ عملية انتقامية ضد إسرائيل، كما كانوا يفعلون قبل اغتيال مغنية، لكن الإيرانيين لا يريدون أن يتورطوا مع الاسرة الدولية، وخاصة أن هدفهم الاستراتيجي الأعلى هو الوصول إلى قنبلتهم النووية الأولى بسلام، وحينما تصبح لديهم القنبلة، فسيكون هامش تحركهم أكبر بكثير تجاه أي عمل يعتبرونه اعتداء. ومع ذلك يمكن الاعتماد على العقول الإيرانية الخلاقة، الذكية والجريئة، لإيجاد وسيلة لتقديم العون لنصر الله للرد على عملية الاغتيال.

معضلة حماس

تفصل غزة عن مسرح الاغتيال في دمشق مئات الكيلومترات، إلا أن تصفية مغنية قد تكون ذات أثر دراماتيكي على الساحة الجنوبية النازفة لإسرائيل. وهنا يمكن الإشارة بارتياح إلى أنه رغم أن أساس الاهتمام الإسرائيلي منذ صيف ٢٠٠٦ مكرس لجلد الذات، فإن الردع الإسرائيلي في حالة من الترميم الدؤوب. في البداية الغارة على المفاعل النووي السوري، وحاليا اغتيال مغنية، وبينهما قتل ٢٠٠ مخرب آخر في قطاع غزة في عمليات عسكرية منذ شهر تشرين الأول الفائت.

ولكن هذا «المحصول» إضافة إلى الحصار الاقتصادي على غزة، ليس كافياً لإيقاف إطلاق صواريخ «القسام» غير المنقطع، إلا أن قائدي «حماس»، خالد مشعل وموسى أبو مرزوق، يفهمان جيداً أن من قطع فتيل حياة مغنية قادر على قتلهما في دمشق، حيث يلوذان. وبالمناسبة فإن تجارب الماضي تظهر أنه في العمليات التي نفذها الموساد وتحملت إسرائيل مسؤوليتها تلقى الموساد مساعدة وثيقة من أجهزة استخبارية أخرى، وفي مقدمتها شعبة الاستخبارات العسكرية.

وإذا كانت إسرائيل هي من نفذ اغتيال مغنية، فبالوسع رؤية أن العملية التي أنضجها الموساد كانت سببا في تأجيل العملية البرية الواسعة في قطاع غزة وتقليص نيران الصواريخ. إن الاغتيال يمكن أن يعتبر تصفية حساب لعملية الاختطاف وكتحسين لنتيجة حرب لبنان الثانية، وربما أن إسرائيل ستستثمر في النهاية كل الجهد لإيجاد حل لمشكلة القسام.

معضلة أولمرت

إذن كيف يوقفون إطلاق الصواريخ؟ في الأسبوع الفائت نشر هذا الملحق في مقالة بعنوان «الجابي» أن إيهود باراك، الذي كان طوال حياته شريكاً في قرارات اغتيال بل وفي تنفيذها فعلياً، وهو أيضاً كوزير دفاع يرى في سلاح الاغتيال حلاً محتملا للمشاكل التي تجعل حياة سكان سديروت والنقب الغربي مريرة. وكان إيهود باراك وقت اغتيال مغنية في تركيا، حيث أجرى محادثات حميمة وودية مع القيادة هناك. وهكذا، على سبيل المثال، أجرى باراك حواراً غير مخطط له طوال ساعة ونصف على انفراد مع رئيس الحكومة التركية طيب رجب أردوغان، الذي سمع منه بشغف تقديراته حول صورة الوضع الإقليمي. وقد تحدثوا بين أمور مختلفة حول ما يجري في كل من إيران وسوريا. وكل ذلك قبل شيوع نبأ اغتيال مغنية.

ومقارنة بالتعامل المتعاطف الذي ناله باراك في تركيا، من المشكوك فيه إن كان لباراك في الآونة الأخيرة وقتاً نوعياً متواصلاً كهذا مع رئيس حكومة آخر، هو إيهود أولمرت. ورغم ما يعتبر نجاحات إسرائيلية على الأراضي السورية، فإن «الإيهودين» يتعاملان بغصة مع بعضهما البعض في هذه الأيام. بل حتى بعداء. ويعزو كثيرون هذا العداء لتصريح إيهود باراك أثناء الانتخابات التمهيدية التي انتخب فيها زعيما لحزب العمل بأنه سيقود الحزب نحو إسقاط الحكومة بعد نشر التقرير النهائي للجنة فينوغراد، ولتغييه التظاهري عن خطاب أولمرت في الكنيست بعد نشر التقرير. ولكن هناك جهات تقدر أن مصدر العداء بين الرجلين اللذان كانا يعتبران في الماضي صديقين حميمين (حتى أن أولمرت أيد علناً ترشيح باراك لرئاسة الحكومة عام ١٩٩٩) يعود إلى أحداث صيف العام ٢٠٠٠.

فقد ذهب رئيس الحكومة باراك حينها إلى كامب ديفيد وبالغ في عروضه السخية للفلسطينيين في قضية القدس. وعند عودته من المؤتمر مع ياسر عرفات سمع أن أولمرت عرضه في حديث إذاعي كشخص غريب الأطوار يعرض للخطر مستقبل القدس. ولم يسكت باراك واهتم بأن ينشر أنه قبل كامب ديفيد تشاور مع رئيس بلدية القدس إيهود أولمرت وأنه عمل وفقا لنصائحه خلال المفاوضات. وترافقت الاتهامات المتبادلة بإهانات شخصية قاسية. ومنذ ذلك الحين لم تعد المياه إلى مجاريها.

ويختلف باراك وأولمرت فيما بينهما حول العديد من القضايا وبينها مكانة المجلس الوزاري المصغر للشؤون الأمنية. ورغم رفض باراك المبدئي للاجتماعات عديمة القيمة فإنه جرت ثلاث مداولات جوهرية طرحت فيها إمكانية تنفيذ عملية برية واسعة في قطاع غزة. وخلافاً لحرب لبنان فإن إسرائيل حددت سلفاً أهدافها من الحرب (إذا نشبت) كتابياً: وقف إطلاق الصواريخ، تقليص تهريب الأسلحة بشكل كبير من مصر إلى القطاع، إضعاف حكومة حماس، وإذا نشأت ظروف مناسبة، العمل من أجل تغييرها، والعمل على المدى البعيد من أجل الانفصال التام والنهائي عن قطاع غزة، حتى بالمعنى الاقتصادي للكلمة.

فهل سينجح أولمرت، في ضوء هذه الأهداف في، فرض سطوته على وزرائه، الذين لا يكترث كثيرون منهم به؟ وهل سيخرج الجيش آجلاً أو عاجلاً لعملية برية واسعة في غزة؟ إن الأجوبة على معضلات أولمرت هذه معلقة بشكل كبير على الخطوات التي سيتخذها اللاعبون الآخرون في الحلبة بعد تصفية مغنية. فالكرة توجد الآن بأيديهم.

عمير ربابورت

معاريف ١٥_٢_٢٠٠٨

أولمرت لباراك: مبروك، طبعاً لسنا الفاعلين! (معاريف ١٥_٢_٢٠٠٨)